دلالة السياق القرآني اللغوية وأثرها في بيان المباحث العقدية (بحث في العقيدة الإسلامية)

د. أمل محمد أحمد
كلية الإمام الأعظم رحمه الله الجامعة
قسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنكليزية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمدٍ الصادق الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الكرام أجمعين ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وبعد؛ فالدلالة السياقية اللغوية في القرآن الكريم لها خصائص متميزة تجعلها متفردة عن السياقات الأخرى، وهذا لونٌ من ألوان استقلال أسلوب دستور المسلمين عن أساليب البشر وخطاباتِهم، فمن تلك الخصائص مرونة السياق القرآني الترجيحي، والتنوع الدلالي، وحاكميته في تحديد مدلولات الألفاظ كونه ضابطاً لفهم المتلِّقي إذْ إنَّ الألفاظ لو تركت على عواهِنها دون تقييد وتحديد ، حُمِلَت على معانٍ ربما كانت مدلولاتها مخلة في الاعتقاد السليم ، من ذلك تبين عدم قابلية السياق القرآني على التفكك أو التجزء من خلال بعض المضامين العقدية ، كما جاء في دلالة السياق القرآني في تعدد معاني المتشابهات على حدِّ قول العلماء في لفظة (النَّفس) الواردة في سورة المائدة ، من قوله تعالى : ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾[1] .

فموضوع الآية الكريمة هو تفويض العلم الى الله عز وجل، وذلك من ذِكْر الشيء بلفظ غيرهِ لوقوعهِ بصحبتهِ فإطلاق لفظ النفس من جانب البارىء تعالى، إنما هو لمشاكلة مّا معه أي: مع ذات الله تعالى والمقصود هُنا هو النفس البشرية ومعنى ذلك إجمالاً أن سيدنا عيسى عليه السلام سَلَكَ بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبيّنه فكان قوله تعالى: ﴿فِي نَفۡسِكَ ﴾ الآية، لقولهِ تعالى في سابق السياق: ﴿فِي نَفۡسِي ﴾ الآية ، ونأتي الآن إلى أقوال العلماء الذين أوّلوا لفظ (النَّفس) الثانية في قوله تعالى: ﴿فِي نَفۡسِكَ ﴾الآية ، فذهب السُّهَيْليّ إلى أنَّ النفس عبارة عن حقيقة وجود الله تعالى دون معنى زائد، وقد اسْتُعْمِلَ من لفظ النفاسة والشيء النفيس، فَصَلُحَتْ للتعبير عنه سبحانه وتعالى.

وقال ابن اللَّبان[2]: (أَوَّلها العلماء بتأويلاتٍ، منها أن (النَّفسَ) عُبِّرَ بها عن الذّات، وقال اللِّبان في ذلك، وإنْ كان هذا سائِغاً في اللغة، ولكن تَعَدَّى الفعل (أعلم) الآية إليها، أي: إلى لفظ (النفس) الثانية، بالحرف

(١) سورة المائدة ، من الآية ١١٦ .

(٢) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الاسعردي الدمشقي، شمس الدين ابن اللبان: مفسر، من علما العربية. ولد بدمشق. واستقر وتوفي بمصر سنة ٧٤٩هـ. من كتبه (ألفية) في النحو، قيل: لم يصنف في العربية مثلها، و(ديوان خطب) و(رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات) في التفسير، و(إزالة الشبهات عن الآيات والاحاديث المتشابهات) .. ينظر: الدرر الكامنة : ٣٣٠/٣ ، والاعلام ، للزركلي : ٣٢٧/٥ .

(في) الذي يُفيد الظرفية وذلك مُحال على الله تعالى، لأنَّهُ سَيُحَدَّدُ بحيز مُعَيّن بهذا الظرف وذلك خاطىء) وقد أوَّلها بعضهم بالغيب أي: لا أعلم ما في غيبك وسِرّك ومعلوماتك وخفائِك ومُرادِك.

يَتّضَح لنا مما ورد من أقوال العلماء في تأويل لفظ ﴿نَفْسِكَ﴾ الآية، أن القول الآخير بأنّ معنى (النفس) هُنا مُؤوَّلٌ بالغيب والسر والخفاء والدراية، فقد **شَهِدَ له فيما بعدَهُ من لاحق السياق**، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الآية، وعَرَّج على ذلك اللّبان بأن ذلك التأويل حسنٌ وكذلك لما ذكرهُ الزمخشري في كَشَّافِه: (بأن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾الآية)، فيه تقريب للجملتين معاً، والمقصود بالجملتين أي: لفظ ﴿فِى نَفْسِى﴾ ، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ الآية، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغُيوبِ، ولأنّ ما يعلمهُ علاّم الغيوب لا ينتهي إليه عِلْمُ أحّدِ).

فيّتضح من ذلك أن للسياق القرآني الأثر البالغ والكبير في العملية التطبيقية للترجيح الدلالي على اختلاف أنواع قواعد التفسير وضوابطه سواء كان ذلك الترجيح لغوياً أو فقيهاً أو في اختلاف معاني القراءات القرآنية أو عقدياً، أو عامّاً، أو غير ذلك، إذْ لا يُستغنى عنهُ بأيّ حال من الأحوال، وإن تُرِكَ هذا العلم أصبح تفسير الأشياء قاصراً.

* * *

المبحث الأول

مفهوم الدلالة السياقية

أولاً: الدلالة في اللغة والاصطلاح.

الدلالة في لغةً: هي مصدر مِنْ دَلَّ يَدُلُّ دلالة كالكِنَايةِ والأَمارة، وإذا دَلَّ شخص أحداً على طريقٍ مّا فهذهِ تُسمى (دلالة) بفتح الدال أو كسرها، والدَّليل الدَّال أيضاً إذْ يَدُلُّهُ بالضم على الطريق، فكلٌّ منَ الدَّال والدَّليل (دِلَالة)[١].

والدلالة اصطلاحاً: ما يُتَوَصَّلُ بهِ إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالةِ الإشارات والرموز والكتابة والعُقودِ في الحساب، وسواءُ كان ذلك بقصدٍ مِمَّنْ يجعلُهُ دلالَةً أو لم يَكُنْ بقصدٍ كَمَن يَرَى حركَة إنسانٍ فيعلمُ أَنَّهُ حَيٌّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] ولمَّا كان أصل الدلالة مصدر، والدَّال مَنْ حَصَلَ منهُ ذلك أي: الدلالة على الشيء، والدليل في المبالغة كعالِم وعليم، وقادرٍ، وقديرٍ، كان واضحاً أن يُسَمَّى ويُطلق على الدَّال والدليل (دلالة) كتسمية الشيء بالمصدر، أي: كتسمية الدَّال والدليل (بالمصدر وهي الدلالة)[٣].

ويذكر الجرجاني تعريفاً اصطلاحياً (للدلالة) فيقول: (هي كون الشيء بحالة يَلْزَمُ من العلم بهِ العلمُ بشيء آخر، والشيء الأول هو الدَّال، والثاني هو المدلول)[٤].

والمقصود بقولهِ كون الشيء بحالة يلزم من العلم بهِ، أي: مثلاً الدخان دليل على النار فهذا الشيء هو الدخان، وقوله (العلم بشيء آخر) اي: النار كما في المثال، فرؤيتك للدخان في السماء مثلاً هي الحالة التي تلزم من العلم وجود شيء آخر وهي النار نستدل من ذلك كله إلى أن الدلالة هي (دال أو دليل) + (مدلول)، فربما كان الدال نفس الدليل كما ذكرت المعاجم، والذي يَهُمُّنا من ذلك ان الدال والدليل و (المدلول أو المعنى) كلها عناصر تنضوي تحت المصدر وهي (الدلالة)، إذْ ان الدلالة بمفهومها العام

---

(١) ينظر مختار الصحاح ، الإمام محمد بن أبي بكر الرازي، مادة (دَلَلَ) (٢٠٩). ولسان العرب، ابن منظور مادة (دلل) (٢٤٨-٢٤٩).

(٢) سورة سبأ، الآية : ١٤.

(٣) يُنظر معجم مفردات الفاظ القرآن، الراغب والاصفهاني (مادة/ دَلَّ)، (١٩٢).

(٤) التعريفات للجرجاني (٨٦)

هي الارشاد[١].

ثانياً: السياق في اللغةً والاصطلاح.

السياق لغةً: قال ابن فارس في السياق: (السين والواو والقاف أصلٌ واحدٌ)[٢] وساقَ الماشيةَ سَوْقاً وسِيَاقَةً ومَساقاً وٱسْتَاقَهَا، فهو سائِقٌ وَسَوَّاقٌ يَحْدُد ويسوقُ بالإبل والماشية، والـمُسَاوَقَة المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً[٣].

وجاء في القاموس المحيط: (وَلَدَتْ ثلاثَةَ بنينَ على ساقٍ: متتابعة لا جارية بينهم)[٤].

والسياق: المَهْرُ، لان العرب كانوا اذا تَزَوَّجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً، لإنها كانت الغالب إلى أموالهم[٥]

والسُّوقُ مشتقةٌ من هذا لِمَا يُساقُ إليها من كلِ شيءٍ[٦]

وذكر الزمخشري: وهو يسوق أفضل الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك على سوقهِ، أي: علم سردِهِ[٧].

فمن هذهِ الاقوال عرفنا أن معاني الجذر اللغوي (س - و- ق) قد جاءت على هذا الأصل، ولم يَرِد لفظ (سياق) في القرآن الكريم.

وذلك ظاهر وجلي في قولهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[١٠].

فمن ذلك كُلِّهِ يتبيّن: أن جريان وتتابع الأشياء هو تساوق وتجانس بعضها ببعض مُؤَدِّيةً بذلك التساوق والاتّساق المنتظم مطلباً مُحَدَّداً لا آجتزاء فيه، وذلك ما وَضَّحَتْهُ أقوال علماء اللغة لمادة (سَوَقَ).

السياق في الاصطلاح: بداية أودُّ أن أذكر بعض آراء بين علماء الأُمة الإسلامية الذين تحدَّثُوا وَدَوَّنُوا في السياق القرآني آثاره ودلالاته وأهميته في توضيح بعض المعاني وترجيحا لِمَا كان لدلالة السياق الأثر الكبير

(١) التعريفات ، الجرجاني (٨٦)، والكليات ، أبي البقاء الكفوي (٤٣٩).
(٢) مقاييس اللغة ، ابن فارس (مادة/سَوَقَ) (٤٢٣).
(٣) يُنظر مقاييس اللغة ، ابن فارس (مادة/سوق) (٤٢٣)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، (باب القاف فصل السين).
(٤) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي (باب القاف فصل السين) (مادة سَوَقَ)
(٥) يُنظر لسان العرب ، (مادة/سَوَقَ)، (١/١٦٦-١٦٩).
(٦) يُنظر مقاييس اللغة ، ابن فارس، (مادة/سوق)، (٤٢٣)
(٧) أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، (٢٢٥).
(٨) سورة الزُّمَر، من الآية: ٧١.
(٩) سورة مريم، من الآية: ٨٦.
(١٠) سورة الأعراف، من الآية: ٥٧.

في أصول التفسير عند المفسرين لكتاب الله تعالى. وذلك واضح في قول الأمام الطبري ﷺ في تفسيره: «إنما آخترنا ما آخترنا من التأويل، طلبُ آتساق الكلام على نظام من المعنى» [١].

وكذلك ما ذكرَهُ الإمام الآلوسي ﷺ قائلا: "وسياق النَّظم الكريم وسباقه ظاهر" [٢] يذكر الدكتور المثنى عبد الفتاح محمد أن ((عبارة الآلوسي ظاهرة في أن المراد من السياق شيء غير المراد بالنظم)) [٣]

للتعريج على الفرق الحاصل بين السياق والنظم ترجع إلى قول الخَطَّابي ﷺ وهو يُقسم أركان الكلام قائلا: ((لفظ حامل- ومعنىً به قائم- ورباط لهما ناظم)) [٤] الذي يربط المعنى باللفظ النظم [٥]

فالنظم عند الخطابي: "هو الذي يكشف عن حسن ارتباط المعاني بألفاظها وهو ما يكثر الحديث عنه في بيان الوجوه البيانية كاختلاف معاني الألفاظ المشهورة بالمترادفة عند بعضهم والتقديم والتأخير والذكر والحذف...الخ من أنواع العلوم البيانية، فإذا أُطْلِق (النَّظم) أُرِيْدَ به النُّكت واختلاف الوجوه البيانية" [٦] .

أمّا السياق فيختلف عن النظم بهذا الاعتبار، إذْ إنَّهُ يبحث في الدلالات المعنوية الآتية في مساق واحد، ومدى انسجامها فيما بينها، بحيث تُشَكِّلُ وحدة وقطعة موضوعية من الحقائق العقيدية، او التشريعية، أو الآفاقية والكونية، بما يُحقق للإنسان درب الهداية والفلاح، فالسياق على هذا المعنى يبحث في ترابط المعاني بالمعاني السابقة واللاحقة، والنظم يبحث في ترابط المعاني بألفاظها [٧].

ونرى كذلك عناية البِقاعي بعلم المناسبات [٨] بين الآيات في جميع القرآن الكريم مُترتبة على معرفة الغرض أو الاغراض الموجودة في سياقات السور [٩].

فالمناسبة من خلال عطف مفهومها الاصطلاحي على اللغوي تُفيد البيان والتوضيح بين الآيات والسور بل تُعَدُّ مُرْتكزاً أساسياً لتفسير القرآن كُلّه. والذي يُساعد على ذلك هو (السياق) إذْ يَتَبَيَّن من خلاله الدلالات المستنبطة

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٤٧٩/١).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (٣٧٤/١١).

(٣) نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية، (١٧-١٨).

(٤) بيان إعجاز القرآن، (٢٧).

(٥) يُنظر نظرية السياق القرآني، الدكتور المثنى عبد الفتاح، (١٨).

(٦) بيان اعجاز القرآن، في الاصل (البعض)، والصواب ما اشتبه الخطابي، (٢٧).

(٧) يُنظر نظرية السياق القرآني، الدكتور المثنى عبد الفتاح، (١٨).

(٨) المناسبة لغةً: المُشاكلة أي: الموافقة، والمقارَبة، القاموس المحيط للفيروز آبادي، باب الباء فصل النون، واصطلاحاً: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، كارتباط آي القرآن الكريم بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة مُتَّسِقَة المعاني منتظمة المعاني. يُنظر: الإتقان في علوم القرآن، ، (٢٧٢/٢-٢٧٣).

(٩) يُنظر نظم الدُرَرَ في تناسب الآيات والسور، (١٩/١).

والمعاني المتتالية في تلك المنهجية القرآنية، وما يؤكد ذلك ما جاء في البرهان في علوم القرآن: ((والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلّة، ما وَجْهُ مناسبتها لَمِا قبلها، ففي ذلك علمٌ جَمٌّ، وهكذا في السور يُطلب وَجْه ٱتصالها بما قبلها وما سِيْقَتْ له))[1].

يَتَّضحُ من ذلك بأنَّ السياق وعاءٌ يحتوي فَنَّي النظم والمناسبة فالنظم: كما ذُكِرَ سابقاً مختصٌّ بإيضاح الوجوه البيانية كالترادف وغيره، ومدى تناسب وعلاقة الالفاظ بمعانيها ولا تَتَّضِح تلك العلاقة إلاّ باستجلاء لدلالته المعنوية بسابقهِ ولاحقه .

والمناسبة: لا يتم استجلاؤها إلاّ بعد معرفة سياق المقاطع القرآنية فحينئذٍ تُبْرِزُ المناسبة من خلال السياق أمراً في غاية الوضوح والبيان[2].

ومِمَّن عُنِيَ بهذا الفن العظيم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه اللذان أبدعا في تفسير القرآن العظيم واستنباطاتهم من خلال دلالات النصوص القرآنية ودقائقها البيانية البديعة.

فنرى مثلاً: شيخ الإسلام يُحِدّد سياقات سورة البقرة وأغراضها العامّة قائلاً: ((وقد ذكرتُ في مواضع مَا ٱشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين)) [3] .

وهذا ابن القيم الذي كان دقيقاً في استخراج كنوز القرآن واسراره البيانية، إذْ يتكلم عن سياق سورة التحريم وأنها في مجال مقام النبي ﷺ وأزواجه وتحذيرهنَّ من التَّظاهر عليه حتى ٱبتدأت السورة بالنداء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ...﴾[4]

قال ابن القيم رحمه الله: "في هذهِ الامثال من الاسرار البديعة ما يُناسب سياق السورة، فإنها سِيْقَتْ في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تَظَاهُرِهِنَّ عليه، وأنَّهُنَّ إنْ لم يُطِعْنَ الله ورسوله وَيُرِدْنَ الدار الآخرة لم يَنْفَعْهُنَّ اتصالهنَّ برسول الله، كما لم ينفع ٱمرأة نوحٍ ولوطٍ أتصالهُمَا بهما"[5] .

وكذلك نجد من المعاصرين مَنْ تناول علم السياق القرآني وأبدع وبرع فيه منهم ما ذكره سيد قطب : متحدثاً عن بني اسرائيل في اثناء تفسيرهِ لسورة البقرة ومواضع أخرى، وهو يقول: ((بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني اسرائيل))[6].

---

(١) البرهان في علوم القرآن، (٤٣/١).
(٢) تُنظر نظرية السياق القرآني، الدكتور المثنى عبد الفتاح، (١٩).
(٣) مجموع الفتاوى، أحمد أبن تيمية (١٤/١٤)
(٤) سورة التحريم، الآية: (١).
(٥) الأمثال في القرآن، لابن القيم الجوزية، (٥٧).
(٦) في ظلال القرآن، لسيد قُطب، (٣٣/١).

وفي موضع آخر من سورة آل عمران يُظهر لنا اهتمام اسلوبه في السياق قائلا: (ويتكىء سياق السورة على هذا الخط ويوضّحه...)[١] ، وكذلك ما ذكره الاستاذ محمد دراز صاحب كتاب (النبأ العظيم) .

والذي أبدع من المعاصرين في توضيح معنى السياق اصطلاحاً هو الدكتور المثنى عبد الفتاح محمود إذْ أظهر لنا تعريفاً اصطلاحياً منطلقاً من أصل لغوي جامعاً فيه الاصالة العلمية والفكرية للمصطلح التفسيري قائِلاً فيه: «السياق القرآني: هو تتابع المعاني وانتظامها في سلك الالفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، من دون انقطاع أو انفصال» [٢] .

فعند إرجاع النظر فيما سبق من أقوال العلماء وحديثهم عن أثر ودلالات السياق القرآني يتبيّن لنا عدم الخلاف بأنَّ آيات وسور القرآن الكريم بل وألفاظهِ على تعدد معانيها جزء كامل لا يتجزأ، مما دعاني للتحّري والتَّقَصي عن مفهوم سياقاته فأقول عن السياق القرأني وبالله التوفيق:

إن السياق القرآني هو: **ارتباط جريان معاني الألفاظ فيما بينها عن طريق النصوص القرآنية المنتظمة، مُؤَدِّيةً أغراضاً موضوعيةً هادفة .**

ولعل البحث في مفهوم السياق القرآني عند علماء الامة الإسلامية سابقاً ولاحقاً كان لابُدَّ منه في مقدمة الموضوع كي نستقي منه متأملين ولو نظرة متواضعة في هذا المجال للوصول إلى تصوّر ومفهوم مُقارب لمفهومهم الدقيق، لِيُدْرَج مفهومي مع النظريات السياقية القرآنية التي أحسب أنها في هذا المجال بالذَّات قد حازت ٱنطباعاً واسعاً ؛ من خلال سنوات البحث في السياق على امتداد الأزمنة في العالم، وبدوري لا أستطيع أن أتجاوز ذلك إلاّ أن أذكر الفضل كله للحضارة القرآنية في هذا الموضوع من دون الرجوع إلى مادتهِ الثرية المعطاءَة.

* * *

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٥٧/١)

(٢) نظرية السياق القرآني، للدكتور المثنى عبد الفتاح (١٥).

المبحث الثاني

المحكم والمتشابه بين ادعاء التعارض ، والاشتراك الحقيقي

من ذلك ما اُخْتُلِفَ فيه عند بيان المحكم والمتشابه[١] فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز في مواضع منه بأَنهُ محكم[٢] كقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[٣]، وهذا يشملُ الكتاب كُلَّه[٤]. ووصفه تعالى في موضع آخر بأَنَّهُ متشابه[٥] إذْ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[٦].

وهذا الوصف يشملهُ كُلُه أيضاً[٧]، ووصفه في موضع ثالث بأنِّ منه مُحكماً ومنه متشابهاً[٨]، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا

---

(١) فالمحكم لُغةً: من حَكَمَ يَحْكُمُ فهو مُحْكَمٌ ، فالحاء والكاف والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الإتقانُ والمَنْعُ، يُقال أحْكَمَ الرأي أَتقَنَهُ ومنعهُ من الظلم والفساد، فالقرآن بهذا المعنى اللغوي كلُّهُ مُحْكَمٌ قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هُود الآية ١] ، يُنظر مقاييس اللغة لابن فارس (مادة حَكَمَ) والكليات لابي البقاء اللغوي (مادة حَكَمَ). والتعاريف الاصطلاحية المشهورة للمُحْكَم عند العلماء هي (أن المحكم: الذي يدلُّ على معناه بوضوحٍ لإخفاء فيه، أو هو مالا يحتَمِلُ إلاّ وجهاً واحداً من التأويل، أو هو ما كانت دلالته راجحة وهو الظاهر والنص)، وعند الأصوليين مالا يتطرق إليه نسخٌ، يُنظر الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٥/٢).

والمتشابه لغةً: المتماثل، يُقال: أمور متشابهة، أي: متماثلة يُشْبِهُ بعضُها بعضاً، ويُقال: شابهُ وأَشْبَهَهُ، أي: ماثلهُ إلى درجة الالتباس، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة الآية ٧٠]، يُنظر القاموس المحيط، للفيروز آبادي، باب الهاء فصل الشين، والمتشابه في الاصطلاح: هو ما يحتمل أكثر من دلالة، وربما كانت غير واضحة، فمنها الصحيحة ومنها الفاسدة، وربما كان المتشابه ما لا يستقل بنفسه، أي: يحتاج الى قرينة وبيان، لحصول الاختلاف في تأويلهِ، يُنظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، (٥/٢).

(٢) يُنظر الإتقان للسيوطي: ٥/٢-٧ ، والواضح في أصول الفقه، د. محمد سليمان الأشقر، (٦٩).

(٣) سورة هود/ الآية: ١.

(٤) يُنظر الإتقان للسيوطي (٥/٢).

(٥) يُنظر المصدر نفسه (٥/٢).

(٦) سورة الزمر/ الآية: ٢٣.

(٧) يُنظر الإتقان للسيوطي، (٥/٢).

(٨) يُنظر المصدر نفسهُ (٥/٢).

يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[١].

هذا التعارض ظاهري فقط وليس حقيقياً، فالقرآن كُلُّهُ (محكم) بمعنى إحكام ألفاظه ومعانيه، وعدم وجود الاختلاف فيه، والقرآن كُلُّهُ (متشابه) بمعنى أن آياته متشابهة في الكمال والإعجاز والإحكام والنفع والصدق والهداية إلى الخير[٢] وللعلماء في المتشابهات من جهة المعاني موقف واحد من حيث الابتداء أي: أنهم مُتَّفِقُون على تأويلها إجمالياً أي: برد المتشابه إلى المحكم وخصوصاً في آيات الصفات المتشابهة[٣] وبعض العلماء في المتشابه من آيات الصفات تفصيل في تأويلها مُعْتَمِدِين على النصوص الأُخرى وبيان لغة العرب[٤].

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) الواضح في أصول الفقه، د. عمر سليمان الاشقر. (٧٠)

(٣) الواضح في علوم القرآن، تأليف: . (١٢٦-٢٧).

(٤) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٥/٢)، والواضح في أصول الفقه د. محمد سليمان الأشقر، (١٣٢).

المبحث الثالث

دلالة السياق القرآني في العقيدة الإسلامية، نموذج تطبيقي

ومن الأمثلة على دلالة السياق اللغوي في تَعَدُّد معاني المتشابهات على حدِّ قول العلماء ما جاء في لفظة (النَّفْس) الذي ورد في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[١].

فموضوع الآية الكريمة هو تفويض العلم الى الله عز وجل[٢]، وذلك من ذِكْر الشيء بلفظ غيرِهِ لوقوعِهِ بصحبتِهِ[٣] فإطلاق لفظ النفس في جانب البارىء تعالى، إنما هو لمشاكلة[٤] مّا معه أي: مع ذات الله تعالى والمقصود هُنا هو النفس البشرية[٥] ومعنى ذلك إجمالياً أن سيدنا عيسى عليه السلام سَلَكَ بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبيّنه[٦] فكان قوله تعالى: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ الآية، لقولِهِ تعالى في سابق السياق: ﴿فِي نَفْسِي﴾ الآية ، ونأتي الآن إلى أقوال العلماء الذين أوّلوا[٧] لفظ (النَّفس) الثانية في قوله تعالى: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾الآية ، فذهب السُّهَيْليّ إلى أنَّ النفس عبارة عن حقيقة وجود الله تعالى دون معنى زائد، وقد أُسْتُعْمِلَ من لفظ النفاسة والشيء النفيس، فَصَلُحَتْ للتعبير عنه سبحانه وتعالى[٨].

وقال ابن اللَّبان: (أَوَّلها العلماء بتأويلاتٍ، منها أن (النَّفسَ) عُبِّرَ بها عن الذَّات، وقال اللِّبان في ذلك، وإنْ كان هذا سائِغاً في اللغة، ولكن تَعَدَّى الفعل (أعلم) الآية إليها، أي: إلى لفظ (النفس) الثانية، بالحرف

---

(١) سورة المائدة/من الآية: ١١٦.

(٢) يُنظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (١٥٦/٢).

(٣) يُنظر الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٢٣٩/٣).

(٤) المشاكلة: من شَكَلَ يشْكِلُ فهو مُشَاكِلٌ، يُقال هذا دَخَلَ في شِكل هذا وربما أتى بمعنى المماثلة. يُنظر مقاييس اللغة لابن فارس (مادة: شَكَلَ)، فأصل المُشَاكلة من الشَّكْلِ، أي: تقييدُ الدَّابّة، ومنهُ أُسْتُعِيرَ لفظ المشاكلة في الشِّبه والمثل، يُنظر معجم مفردات الفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، (مادة: شَكَلَ)، (٢٩٨).

(٥) يُنظر الإتقان، للسيوطي (٢٣٩/٣).

(٦) يُنظر الكشاف، للزمخشري، (٦٧٩/١).

(٧) المقصود بالتأويل ، أي : الاجتهاد أو الاستنباط أو الدراية أو الترجيح . يُنظر : البرهان في علوم القرآن للشركشي ، (١٤٨/٢) ، والكليات لأبي البقاء الكفوي ، (٢٦١) والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، (١٤-١٥) .

(٨) يُنظر الإتقان، للسيوطي (١٧/٢).

(في) الذي يُفيد الظرفية وذلك مُحال على الله تعالى، لأنَّهُ سَيُحَدَّدُ بحيز مُعَيّن بهذا الظرف وذلك خاطئ)[١] وقد أوّلها بعضهم بالغيب[٢] أي: لا أعلم ما في غيبك وسِرّك ومعلوماتك وخفائِك ومُرادِك[٣].

يَتّضَح لنا مما ورد من أقوال العلماء في تأويل لفظ ﴿نَفْسِكَ﴾ الآية ، أن القول الآخير بأنّ معنى (النفس) هُنا مُؤوَّلٌ بالغيب والسر والخفاء والدراية، فقد **شَهِدَ له فيما بعدَهُ من لاحق السياق**، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الآية ، وعَرَّج على ذلك اللِّبان بأن ذلك التأويل حسنٌ[٤] وكذلك لما ذكرهُ الزمخشري في كَشَّافِه: (بأن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾الآية)، فيه تقريب للجملتين معاً، والمقصود بالجملتين أي: لفظ ﴿فِى نَفْسِى﴾ ، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ الآية، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغُيوبِ، ولأنّ ما يعلمهُ علاّم الغيوب لا ينتهي إليه عِلْمُ أحّدِ)[٥].فيّتضح من ذلك أن للسياق القرآني الأثر البالغ والكبير في العملية التطبيقية للترجيح الدلالي على اختلاف أنواع قواعد التفسير وضوابطه سواء كان ذلك الترجيح لغوياً أو فقيهاً أو في اختلاف معاني القراءات القرآنية أو عقدياً، أو عامّاً، أو غير ذلك، إذْ لا يُستغنىٰ عنهُ بأيِّ حال من الأحوال، وإن تُرِكَ هذا العلم أصبحت تفسير الأشياء قاصراً.

* * *

(١) يُنظر الإتقان، للسيوطي، (١٧/٢).

(٢) يُنظر الكشاف للزمخشري، (٦٧٩/١). وفتح القدير للشوكاني، (١٣٤/٢).

(٣) يُنظر الكشاف للزمخشري، (٦٧٩/١).

(٤) الإتقان، للسيوطي (١٧/٢).

(٥) الكشاف ، للزمخشري (٦٧٩/١).

الخاتمة

الحمد لله في الأولى والآخرة والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ ففي الخاتمة أَحببت أن اعرج على أهم ثمرات البحث بما يأتي :

- لدلالة السياق القرآني مرونة واضحة ، أو خفية في تنوع الآراء التفسيرية للآيات القرآنية ، اذ بالإمكان حملها على أقوال مرادة أو غير مرادة .

- دلالة السياق وترجيحاته مورداً عذباً للوصول إلى مراد كلام الله تعالى ، ومن أنكر ذلك وقع في اشكال وابتعد عن العقيدة السليمة .

- اوصي دارس كتاب الله تعالى بالتوجه لعلم السياق ودلالات معانيه على اختلاف العلوم الشرعية لما فيه من تفنيد وتنقيح وتحرير لكثير من المسائل الشائكة ولا سيما مضامين العقيدة المختلف فيها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

* * *

المصادر والمراجع

١) أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، بيروت.

٢) البرهان في علوم القرآن، الامام بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ٢٠٠٧م، ١٤٢٨هـ.

٣) بيان إعجاز القرآن، للفقيه حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطّاب البُسْتِي الخَطَّابِي، تحقيق، محمد خلف الله، مصر ط/٣.

٤) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار النفائس – الاردن ، ط/٢ .

٥) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١م.

٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الامام محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، لبنان-بيروت، ١٩٨٤م.

٧) الحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الامام محمود الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٩) الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ م.

١٠) في ظلال القرآن، لسيد قُطب، دار الشروق، القاهرة، ط/١، ١٩٧٢م.

١١) قواعد الترجيح عند المفسرين، دراسة نظرية تطبيقية، تأليف: حسين بن علي حسين الحربي، دار القاسم.

١٢) لسان العرب ، ابن منظور الافريقي المصري، دار الفكر.

١٣) مختار الصحاح ، الامام محمد بن ابي بكر الرازي، مادة (دَلَلَ) (٢٠٩). ولسان العرب ، ابن منظور .

١٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للشيخ الإمام أحمد بن محمد الفيومي ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس – لبنان.

١٥) نظرية السياق القرآني، دراسة تأصيلية دلالية نقدية، تأليف الدكتور المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل للنشر، ط/١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

١٦) نظم الدُرَرَ في تناسب الآيات والسور، الامام المفسر برهان الدين أبي الحسن بن عمر البقاعي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط/١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٧) الواضح في علوم القرآن، تأليف: د. مصطفى ديب البغا، ومحيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ط/٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

* * *